

السيرة الذاتية وإشكالية التجنيس

إعداد/عراج الهوارية

جامعة وهران

يشكل أدب السيرة الذاتية قضية شائكة تبدت ملامحها الأولية إثر التحول عن خطية التشخيص الذاتي ذي الوقع التوثيقي ليرتاد أفق الممارسة الفنية الإبداعية، مما دفع بالناتج السير ذاتي إلى دخول مناطق نثرية تتخذ من وقائع الماضي منفذا، لصياغة خطاب سير ذاتي «برؤية فردية هي حصيلة المعاشرة الظاهرية للعالم، وإسقاط الشعور والوعي على أحداثه وأشياءه، وإعادة تقديمها عبر كشف ذاتي خالص»⁽¹⁾، يرتهن إلى أسلوبية البحث عن الذات عن طريق تحفيز الذاكرة تحفيزا إبداعيا يتعدى «التعبير المجرد المحايد عن التجارب، إلى استبطان الذات واستظهار طبقاتها»⁽²⁾ عبر مسار يستند فيها كاتب السيرة الذاتية إلى الذاكرة بوصفها «مصدرا أساسا ثرا ومرجعية ممولة للصور والأحداث والحالات، ترفد النص السيرى بمعطيات يبدو بعضها للوهلة الأولى غير ذات أهمية، لكنه ما يلبث أن يكتسب أهميته وخطورته في نسيج اللغة السيرية حين يتفاعل مع ذاكرة اللغة ذاتها، إثر دخول اللغة ميدان الكتابة وتحولها إلى الحركة والفعل»⁽³⁾.

وقد كانت الدراسات النقدية العربية تقترب باستحياء وخطئ متناقلة نحو هذا الجنس النثري الهجين، فعلى الرغم من امتداد جذور السيرة الذاتية « في الماضي الأوروبي لا تزال -عربيا- في طور التخلق، لأنها لم توضع فوق غربال النقد إلا في وقت متأخر نسبيا»⁽⁴⁾، إذ ظلت بعيدة نسبيا عن مقارنة منطقة السيرة بأنماطها المختلفة، قياسا بما حظيت به المناطق السردية الشهيرة كالرواية والقصة والمسرحية وغيرها، فالعناية « النقدية بهذا الجنس الأدبي حديثة

العهد، ولم ترق إلى مستوى العناية بسواه من الأجناس الأدبية، مما جعل ضوابط قواعد الترجمة الذاتية ومعالمها غير واضحة، وغير متفق عليها»⁽⁵⁾.

ومع اتساع دائرة الاهتمام بالفضون الأدبية النثرية، إثر انفتاح الشعر العربي المعاصر على تقنيات الكتابة النثرية، حيث انبثقت قصيدة النثر لتعبر عن التحول الاستراتيجي الطارئ على نمط الكتابة الشعرية « في سياق إعادة الاعتبار للهامش في الفكر والفلسفة والثقافة المعاصرة، شرع الكثير من الدارسين العرب المتخصصين في إيلاء ذلك عناية خاصة، تمخّضت عن قراءات جديدة أتاحت فرصاً حقيقية لاستيلاد عصر أدبي جديد لا تقع السيرة في هامشه»⁽⁶⁾، فالكشف الفني عن خبايا « التجربة الإنسانية المعيشة في الماضي والعوالم الخفية وراءها، يضعنا أمام عمل أدبي يحق لنا أن نصفه بأنه واحد من أكثر المنجزات المتحققة أهمية في الثقافة المعاصرة»⁽⁷⁾.

ولم يرتكن هذا النوع من الإبداع الإنساني إلى أي جنس أدبي محدد، بل فضّل الانزياح إلى حيّز النصوص النثرية الإخبارية التي تحتكم إلى الشاهد التاريخي ذي الصبغة المادية والملمح الزمني، إذ جمعت « بين فنية الأدب وعلمية التاريخ، فهي من جهة سرد قصصي لتجارب وأحداث وذاكرات، بما ينبغي أن يتوافر للسرد من عناصر التشويق الفني والإمتاع البياني، وهي من جهة ثانية، إبراز لحقائق تاريخية ورصد لوقائع موضوعية يتوخاها كاتب السيرة»⁽⁸⁾ في سياق البحث عن الذات وكشفها للآخرين، فالإنسان لا يستطيع كتابة سيرته الذاتية لمجرد الرغبة في ذلك، بل لابد من امتلاك موهبة فنية تساعد على ذلك، لأن وجود الدوافع وحدها لا تؤهله لذلك.

وإذا كان النقد الحديث قد حدّد المجال الإجناسي للسيرة الذاتية باعتبارها نوعاً من الكتابة المتعلقة بأدب الذات، فإنّه لم يحسم نهائياً في

مسألة تعريف هذا الجنس الأدبي تعريفاً علمياً دقيقاً، والواقع أن صعوبة ذلك لا تكمن في حداثة نشأة السيرة الذاتية، إنما تكمن في مرونة هذا الجنس الأدبي، وضعف الحدود الفاصلة بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى، لانفتاحه على أجناس نثرية اقتحم من خلالها الحدود الإجرائية للرواية والقصة، « وهذا ما يفسر اعتراف كثير من الروائيين بأن رواياتهم ولدت من رحم سيرهم، أو هي مطابقة لسيرهم »⁽⁹⁾. وهذا ما سبب خلطاً هائلاً أصبحت تعاني منه بعض المقاربات للأجناس الأدبية ولاسيما النثرية منها، حيث تسود زئبقية مصطلحاتها وانفتاح النصوص على بعضها البعض. فليس ثمة أسوار منيعة أو آليات تعمل داخل الشكل الفني، تحول دون تداخل الأشكال الفنية وتمازجها⁽¹⁰⁾.

وحتى يتهيأ لنا الإحاطة بالبعد الدلالي للسيرة الذاتية نحسب أن المنهج يحتم علينا الوقوف على دلالة المصطلح بالاستناد إلى مرجعيته المعجمية والاصطلاحية، فالكشف عن الاتجاه الدلالي للمصطلح، يقتضي تتبع المفهوم اللغوي، قصد استنطاق الدلالة الأصلية، التي يدور حولها المعنى، لنلج من خلالها مجال المفهوم الاصطلاحي، حيث يتخذ المصطلح تفسيرات علمية، أكثر تخصصاً ودقة.

I. المجال الدلالي لمصطلح السيرة الذاتية:

1-التحديد المعجمي: إن أدنى إطلاقة على المعاجم اللغوية المتخصصة تفيد أن السيرة من « سَيَرَ السَّيْرُ أي الذهاب، سار سَيْراً ومَسِيراً وتَسياراً، ومَسِيرَةً وسَيْرورة [...] والسيرة: السنة، والسنة هي الأمر بين الناس، والسيرة بمعنى الهيئة »⁽¹¹⁾.

وإذا حاولنا الوقوف على الدلالة الاشتقاقية لمادة (س- ي- ر) وفقاً لما استقر عليه "ابن فارس"، فإننا نلفيها تدل « على مضي وجريان يقال ساريسير سيرا [...] والسيرة الطريقة في الشيء والسنة، لأنها تسير وتجري »⁽¹²⁾.

2- **التحديد الاصطلاحي:** إن محاولة استشراف الفضاء الاصطلاحي للسيرة الذاتية يضعنا وجها لوجه أمام زخم من التنظيرات المتقاطعة حيناً والمتضاربة حيناً آخر، مما أدى إلى انقسام في أوجه النظر لدلالة السيرة الذاتية، إذ انشطرت الرؤى الاصطلاحية للسيرة الذاتية وفقاً لسيروية التواصل التي تقتضي وجود مبدع ورسالة ومتلق.

أ- **بالنظر إلى المبدع:** يعد النص السير ذاتي كاشفاً لهوية صاحبه، إذ « تمثل السيرة الذاتية *Autobiographie* تاريخ ذات تتوصل إلى الوعي بذاتها من خلال قوى الوعي والعقل والتواصل مع الآخر »⁽¹³⁾، ويتم تشكيل الذات وتجسيد بنيتها النفسية والاجتماعية والثقافية والايديولوجية « من خلال ميثاق شخصي يندمج فيه المؤلف الواقعي *Real Author* والراوي *Narrator* والشخصية الرئيسية »⁽¹⁴⁾.

وقد حدد "فليب لوجون" البعد الاصطلاحي للسيرة الذاتية بوصفها حكياً استعدادياً نثرياً، « يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة عامة »⁽¹⁵⁾.

ب- **بالنظر إلى النص:** السيرة الذاتية خطاب نثري حكاوي ينتظم ضمن حقل تداولي يفترض وجود مرسل ومتلق، تهيأ لاحتواء رسالة نصية « فيها من العمق والغنى ما يستحق أن يروى، لتقدم تجربة يمكن أن تثري القارئ وتخصب معرفته بالحياة من خلال الاطلاع عليها والإفادة منها »⁽¹⁶⁾ بأسلوب حكاوي امتزجت فيه الذات مع تقنيات السرد، تشتغل فيها الذات الساردة على انتخاب حلقات معينة من الحياة المعيشة، « وحشدها بأسلوبية خاصة تضمن له صناعة نص سردي متكامل ذا مضمون مقنع ومثير ومسل، ويحاول الراوي السير ذاتي الإفادة من كل التقانات والآليات السردية لتطويع نصه السير ذاتي، ودعمه ما أمكن بأفضل الشروط الفنية، على أن لا تخل بالطابع السير ذاتي العام حتى لا

يخرج النص إلى فن سردي آخر»⁽¹⁷⁾.

ج- بالنظر إلى المتلقي: لا شك أن القيمة الجمالية للعمل الفني بما فيه السير ذاتي لا تتكشف إلا باعتبار العلاقة الافتراضية التي تربط بين كاتب السيرة الذاتية ومتلقيها، والتي تستوجب وجود متلق من شأنه أن « يتصدى للنشاط الكتابي الإبداعي ويتفاعل معه، يقدم استراتيجية رؤية خاصة للكاتب بحيث لا تغدو السيرة سؤالاً خاصاً بالتكوين أو بوصف العمل، ولكن سؤالاً خاصاً باستقبال ذلك العمل»⁽¹⁸⁾.

ولذلك ألفينا "حاتم الصكر" يصيغ إقراراً اصطلاحياً بناءً على بنود الميثاق السير ذاتي الذي يحيل السيرة الذاتية إلى صيغة إجناسية « متبلورة في كونها ميثاقاً بين القارئ الاحتمالي والكاتب»⁽¹⁹⁾. فالسيرة الذاتية ليست مجرد وثيقة تاريخية فحسب، « وإنما هي أيضاً وإلى حدٍّ كبير هدف اجتماعي»⁽²⁰⁾ يتوخى إدخال المتلقي في صلب العملية الإبداعية السردية، مما « يدفع شكل السيرة كي يصبح مُلتقى»⁽²¹⁾ لاسيما بعد أن انفتحت الدراسات النثرية على أطروحات نصية استندت إلى نظريات القراءة والتلقي والتواصل الأدبي، التي حظي فيها القارئ بموقع متميز في سياق العملية الإبداعية.

وقد أشار "محمد صابر عبيد" في كتابه الموسوم بـ "تمظهرات التشكل السير ذاتي" أن المقاربة الاصطلاحية التي انتهت إليها أغلب الدراسات السير ذاتية لا تعدو أن تكون مجرد مقترحات « قابلة للتعديل والإضافة حسب متطلبات تطوّر الأنواع السيرية من جهة، واستناداً إلى الرؤى المختلفة التي يمكن للكثير من النقاد والدارسين والمتخصصين اعتمادها»⁽²²⁾. ولهذا أفرد معجماً اصطلاحياً للسيرة الذاتية أثبت فيه المصطلحات الفاعلة في الدراسات النقدية العربية قديماً وحديثاً، بحسب التسلسل التاريخي والضرورات التي حثمت على السيرة الاتصال بالفنون الأدبية المختلفة⁽²³⁾.

يتعاقد أدب السيرة الذاتية وموضوع التاريخ شكلاً ومضموناً في الكثير من المواطن، بوصفهما حقلان ينحوان إلى تصوير ماضي الأحداث

بمآثرها ومواقفها. ويبدو أن الاختلاف الحاصل بينهما لا يتعدى الآلية الإجرائية التي يستندان إليها، من حيث إن البحث التاريخي يسعى إلى التجرد من ذاتية التأليف والالتكاء على أكبر قدر من الشواهد المادية والمعنوية اللازمة لبعدي الزمان والمكان، لإثبات الحدث وترسيمه، عكس الأديب الذي لا يجد عناء في أن يتملص من قيد الموضوعية، والغوص في فضاء المتخيل المتناهي الأبعاد.

وإذا ما ولجنا إلى تحديد مفهوم دقيق لموضوع التاريخ، نقف على حقيقة أنه «فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان»⁽²⁴⁾، حيث يتوسط الإنسان قرينتي الزمن ومتغيرات الحدث. وهي العوامل ذاتها التي تنهض عليها الكتابة في أدب السيرة. فعلى الرغم من أن الأديب ينطلق من الرحابة التي يخولها له الإبداع الفني، إلا أنه يجد نفسه مشدوداً بين الفينة والأخرى إلى جملة من الوقائع التاريخية التي تتمظهر على هيئة عتبات سردية، مثبتة بشواهد معلومة الحال، ومنتظمة في تراتبية عبر معلم زمني محدد.

ولئن كان كاتب السيرة قد ارتكن بوضوح إلى السنن التي حددتها الكتابة التاريخية، فليس لكاتب التاريخ أن يتوان عن الاعتماد على شواهد تؤسس لها إنتاجات أدبية بعينها، « فلا غنى لدارس المجتمع العباسي من الاطلاع على ورد في تأليف أدباء ذلك العصر أمثال الجاحظ والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم، كما لا يمكن لدارس المجتمع الفرنسي في القرن XIX أن يتغافل عما ورد في كتابات بالزك وزولا »⁽²⁵⁾.

ومن هنا، يتبدى لنا التجانس القائم بين الكتابة في السيرة وكذا في التاريخ، فكاتب السيرة الذاتية يجد نفسه مشبعا بالحس التاريخي حين يسرد قصة حياته، ومثقلا بجمع الوقائع والأحداث التي توافقت مع كرونولوجية حياته الزمنية، « وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة »⁽²⁶⁾، ولا يأخذ من التاريخ العام إلا بالقدر الذي يضيء به التاريخ الشخصي والحياة الفردية.

هوامش الدراسة:

1. حاتم الصكر، الذات المحوّة بالكتابة، مجلة راية مؤتة، عمّان، الأردن، العدد 2، 1993، ص 125.
2. محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السيرذاتي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005، ص 18.
3. المرجع نفسه، ص 30.
4. محمد قرانيا، السيرة الذاتية، محمد عابد الجابري وحفريات في الذاكرة أنموذجا، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، عدد 469، أيار، مايو، 2010، ص 166.
5. المرجع نفسه، ص 166.
6. محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير ذاتي، ص 03.
7. محمد قرانيا، السيرة الذاتية، محمد عابد الجابري وحفريات في الذاكرة أنموذجا، ص 166.
8. ميشال عاصي، إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 01، 1987، ج 01، ص 377.
9. حسين مناصرة، روائية السيرة الذاتية، قراءة في نماذج سيرية سعودية، مجلة علامات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، م 13، ج 49 سبتمبر 2003، ص 346.
10. ينظر، عبد الله عبد الرحمن الحيدري، رواية السيرة الذاتية، مجلة علامات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، م 13، ج 49 سبتمبر 2003، ص 580.
11. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، لسان العرب، برعاية الشيخ عبد الله العلايلي، يوسف خياط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، د.ت، ج 04، ص 389-399.
12. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج 03، ص 120-121.
13. أسامة محمد البحيري، تشكيل الزمن السرد في السيرة الذاتية السعودية، قراءة في ذكريات طفل وديع، مجلة علامات، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ج 66، ص 17، أغسطس 2008، ص 451.
14. المرجع نفسه، ص 451.
15. فليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 01، 1991، ص 22.

16. محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير ذاتي، ص88.
17. المرجع نفسه، ص88.
18. روبرت سي هول، نظرية الاستقبال - مقدمة نظرية، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، 1992، ص 02.
19. حاتم الصكر، الذات المحوّة بالكتابة، مجلة راية مؤتة، عمّان، الأردن، العدد 02، 1993، ص125.
20. محمد الباردي، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، حدود الجنس وإشكالاته، مجلة النقد الأدبي "فصول"، المجلد 16، العدد3، 1998، ص 68.
21. المرجع نفسه، ص 68.
22. محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير ذاتي، ص10.
23. ينظر، محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير ذاتي، ص135. وما بعدها.
24. فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000. ص09.
25. فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ. ص135.
26. تهاني عبد الفتاح شاكّر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص16.